زيادة الإيمان ونقصانه

قوله: (وَأَنَّ الْإِيمَانَ: يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ): لما كان للإيمان حقيقة مركبة، وخصال متعددة، متعلقة بالقلب، واللسان، والجوارح؛ صار قابلًا للزيادة والنقصان، **وقد دل ناطق الكتاب على هذا في ستة مواضع:**

١) قال الله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣].

٢) وقال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢].

٣) وقال: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤].

٤) وقال: {وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٢٢].

٥) وقال: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} [المدثر: ٣١].

٦) وقال: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [الفتح: ٤].

فتبين، بحمد الله، أن لفظ "الزيادة" قد تواتر في كتاب الله تعالى، وما كان قابلًا للزيادة فهو قابل للنقصان؛ فإن بين الزيادة والنقصان تلازم عقلي؛ فكل أمر يزيد فإنه ينقص، لأنه قبل أن يزيد كان أنقص منه بعد أن زاد، وقد تواتر هذا عن السلف؛ قال الحافظ ابن حجر–رحمه الله–: (ذَهَبَ السَّلَفُ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَقَالُوا: مَتَى قبل ذَلِكَ كَانَ شَكًّا. قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ: وَإِلَّا ظهر الْمُخْتَارُ أَنَّ التَّصْدِيقَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ بِكَثْرَةِ النَّظَرِ وَوُضُوحِ الْأَدِلَّةِ، وَلِهَذَا كَانَ إِيمَانُ الصِّدِّيقِ أَقْوَى من إِيمَانِ غَيْرِهِ، بِحَيْثُ لَا يَعْتَرِيهِ الشُّبْهَةُ. وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ مَا فِي قَلْبِهِ يَتَفَاضَلُ، حَتَّى إِنَّهُ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ الْإِيمَانُ أَعْظَمَ يَقِينًا وَإِخْلَاصًا وَتَوَكُّلًا منْهُ فِي بَعْضِهَا. وَكَذَلِكَ فِي التَّصْدِيقِ وَالْمَعْرِفَةِ بِحَسَبِ ظُهُورِ الْبَرَاهِينِ وَكَثْرَتِهَا. وَقَدْ نَقَلَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ الْمَرْوَزِيُّ فِي كِتَابِهِ "تَعْظِيمُ قَدْرِ الصَّلَاةِ" عَنْ جَمَاعَةٍ من الْأَئِمَّةِ نَحْوَ ذَلِكَ، وَمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ صَرَّحَ بِهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَالْأَوْزَاعِيِّ، وابن جُرَيْجٍ، وَمَعْمَرٍ، وَغَيْرِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي عَصْرِهِمْ. وَكَذَا نَقَلَهُ أَبُو الْقَاسِمِ اللَّالَكَائِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ عَنِ الشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهْوَيْهِ، وَأَبِي عُبَيْدٍ، وَغَيْرِهِمْ من الْأَئِمَّةِ. وَرَوَى بِسَنَدِهِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبُخَارِيِّ قَالَ: لَقِيتُ أَكْثَرَ من أَلْفِ رَجُلٍ من الْعُلَمَاءِ بِالْأَمْصَارِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا منْهُمْ يَخْتَلِفُ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ. وَأَطْنَبَ ابن أَبِي حَاتِمٍ وَاللَّالَكَائِيُّ فِي نَقْلِ ذَلِكَ بِالْأَسَانِيدِ عَنْ جَمْعٍ كَثِيرٍ من الصَّحَابَةِ

وَالتَّابِعِينَ، وَكُلِّ مَنْ يَدُورُ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ. وَحَكَاهُ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ وَوَكِيعٌ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. وَقَالَ الْحَاكِمُ فِي "مَنَاقِبِ الشَّافِعِيِّ": حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَصَمُّ أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ قَالَ سَمِعت الشَّافِعِي يَقُولُ الْإِيمَانُ قَولٌ وَعملٌ، يزِيدُ وَيَنْقُصُ. وَأَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي تَرْجَمَةِ الشَّافِعِيِّ مِنَ الْحِلْيَةِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنِ الرَّبِيعِ، وَزَادَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ تَلَا: {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} [المدثر: ٣١] الْآيَةَ. ثُمَّ شَرَعَ الْمُصَنِّفُ يَسْتَدِلُّ لِذَلِكَ بِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ مُصَرِّحَةٍ بِالزِّيَادَةِ وَبِثُبُوتِهَا يَثْبُتُ الْمُقَابِلُ فَإِنَّ كُلَّ قَابِلٍ لِلزِّيَادَةِ قَابِلٌ لِلنُّقْصَانِ ضَرُورَةً)[١].

لكن قد رُوي عن الإمام مالك، وعن عبد الله بن المبارك، رحمهما الله، ما يدل على التحفظ على لفظ النقصان؛ فالإمام مالك عنه روايتان: رواية بموافقة الجماعة، ورواية يقول: أقول يزيد، ولا أقول: ينقص.

وقد أجيب عن ذلك بجوابين:

الجواب الأول: أن الإمام مالك -رحمه الله-خشي أن يعبر بلفظ النقصان؛ فيتخذ الخوارج ذلك ذريعة إلى باطلهم، ودعواهم، أنه يزول اسمه بزوال بعضه.

الجواب الثاني: أن يقال: إنه أراد مراعاة لفظ القرآن؛ فالقرآن فيه لفظ الزيادة، وليس فيه لفظ النقصان.

ولكن لفظ النقصان ورد في السنة؛ فقد قال النبي ﷺ عن النساء: (مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ)[٢]، فهذا دليل من السنة على أن الإيمان ينقص، لأن نقص الدين هو نقص الإيمان، وأدلة زيادة الإيمان، ونقصانه، من كلام الصحابة الكرام، والتابعين لهم بإحسان، أكثر من أن تحصر.

كما أن ما ذكره الله تعالى من تفاضل أهل الإيمان فيه دليل على زيادته ونقصانه، كقول الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [فاطر: ٣٢]، فدل تفاضل أهل الإيمان فيه، على أنه يزيد وينقص؛ فالظالم لنفسه يمكن أن يكون مقتصداً، والمقتصد يمكن أن يكون سابقًا بالخيرات، وذلك بفعل الواجبات، وترك المحرمات، أو بفعل المستحبات، وترك المكروهات، والعكس بالعكس.

---

[١] فتح الباري لابن حجر: (١/ ٤٦-٤٧).

[٢] أخرجه البخاري: رقم (١٤٦٢).

كما أن ذلك أمر وجدي؛ يجده كل إنسان في نفسه؛ فإن الإنسان إذا عمل بطاعة الله استروح، وأحس ببهجة الإيمان وحلاوته، وإذا غشي شيئًا من الحرمات أحس بانقباض في قلبه، كما قال ابن مسعود-رضي الله عنه-: (الْإِثْمَ حَوَازُّ الْقُلُوبِ)[1]، يعني: إنه يحز القلب كما يحز الحبل المعصم.

فالدلائل متكاثرة على ذلك، والشيخ -رحمه الله-ذكر شيئًا من أبين أسباب الزيادة، وأسباب النقصان؛ وهي الطاعة والمعصية.

والواقع أن أسباب زيادة الإيمان، وأسباب نقصانه، أكثر من ذلك؛ فمنها:

أولًا: النظر في ملكوت السماوات والأرض؛ فإن من سرح طرفه في ملكوت السماوات والأرض بعين باصرة، وعقل متدبر، زاد إيمانًا؛ قال الله عز وجل: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١]، والإعراض عن النظر في ملكوت السماوات والأرض، والإغراق في الغفلة سبب لنقص الإيمان، وقد لفت الله الأنظار إلى بديع صنعه، فقال: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [النبأ: ٦ - ١٦]، لكنهم لا يعتبرون، ولا ينظرون بنور الله، فلذلك ما زادهم ذلك إلا كفرًا، وبعدًا.

ثانيًا: تدبر القرآن؛ فإن من نظر في القرآن، وتأمله وتدبر معانيه زاد إيمانه؛ ولهذا قال الله: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: ٢]، وقد نعى الله على المشركين إعراضهم عن تدبر القرآن، فقال: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} [المؤمنون: ٦٨]، وقال: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]، فدل ذلك على أن الإعراض عن تدبر القرآن يُنقص الإيمان.

ثالثًا: فعل الطاعة تقربًا إلى الله تعالى، وهذا قيد مهم؛ لأن من الناس مَن يفعل بعض الأمور المستحسنة، لا بنية الطاعة، والتقرب إلى الله؛ فحينئذٍ لا تنفعه في زيادة الإيمان، كمن يفعل ذلك مراءاةً للناس؛ كشهود الجماعة، أو الجمعة، أو الخروج للجهاد في سبيل الله، وهو لا يريد بذلك وجه الله، فلا يزيده ذلك من الله قربًا، ولا إيمانًا، ومما ينقص الإيمان: ترك الطاعة، فمن ترك طاعة، أوجبها الله تعالى عليه، نقص إيمانه بقدر ما ترك، فمن ترك واجبًا فإنه ظالم لنفسه، وأما من ترك مستحبًا، فإنه مقتصد، كما سبق تفصيله.

---

[1] أخرجه أبو داود في كتاب الزهد: (١٢٥)، والطبراني في الكبير: رقم (٨٧٤٨)، والبيهقي في الشعب: رقم (٥٠٥١) وذكره الهيثمي في المجمع (١/١٧٦)، رواه الطبراني كله بأسانيد رجالها ثقات.

رابعًا: ترك المعصية خوفًا من الله تعالى، وهذا أيضًا قيد مهم؛ لأن من الناس من يترك المعصية لأسباب أخرى؛ فيترك شرب الخمر، أو تعاطي المخدرات، حفاظًا على الصحة، فهذا لا يحصل به زيادة إيمان؛ لكن إن تركه طاعة لله-عز وجل-زاد إيمانه. **ومثاله**: أن يصرف الإنسان نظره عما حرم الله، فترك المعصية خوفًا من الله تعالى يزيد الإيمان، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: ١٢]، وفعل المعصية ينقص الإيمان بقدر ما اقترف من المعاصي، ويكون ذلك بحسب قوة الداعي أو ضعفه، وبحسب كبر المعصية وصغرها؛ فهي تتفاوت، ولهذا قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ)[١].

وعنه صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ)[٢].

وعنه صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَةً، لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ)[٣]، فهؤلاء لما ضعف الداعي في حقهم كان نقص إيمانهم أشد؛ والأشيمط: هو الكهل الذي شاب صدغاه؛ فلا مسوغ له للوقوع في الزنا؛ فلذلك كان نقص إيمانه أعظم من نقص إيمان الشاب لو زنا، مع تحريمه عليهما، والعائل المستكبر: هو الصعلوك الذي لا يملك شيئًا، فالداعي للكبر في حقه ضعيف، وإن كان الكبر مذمومًا في حق الغني والفقير.

فعلى العاقل أن يسعى في زيادة رصيده من الإيمان أعظم من سعيه في زيادة رصيده من المال، وعامة الناس يسعون جاهدين إلى جمع الحطام، وتكديس الأرصدة في الحسابات، ولا يفكر أكثرهم في زيادة رصيده من الإيمان، ولا يتعاهد قلبه، ولا ينظر هل أدى ما خلق لأجله من محبة الله، وخشيته، ورجائه! ويدعه مضمارًا تسرح فيه جيوش الغفلات، والشبهات، والشهوات.

واعتقاد أن الإيمان يزيد وينقص، ينشئ في النفس حافزًا لزيادة الإيمان، بخلاف طرفي الضلالة في هذا الباب، وهما المرجئة والوعيدية، فإن اعتقادهم أن الإيمان شيء واحد؛ إما أن يوجد كله أو يعدم كله، لا يحملهم على الازدياد، كأنما يقولون: تجاوزنا القنطرة، وحصلنا على المراد، وحققنا الإيمان، ولم يبقى ما يسعى له.

---

١) أخرجه مسلم: رقم (١٠٧).

٢) أخرجه مسلم: رقم (١٠٦).

٣ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: رقم (٦١١١)، والبيهقي في شعب الإيمان: رقم (٤٥١١)؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٤ / ٧٨) رجاله رجال الصحيح.

كما أن الوعيدية، وإن كان يدخلون العمل في مسمى الإيمان، لما كانوا يهدرون الإيمان بمجرد فعل كبيرة، أو ترك واجب، فيؤدي ذلك بصاحبه إلى اليأس والقنوط من رحمة الله، فلا يطلب زيادة الإيمان.

اسم مرتكب الكبيرة وحكمه

اختلف الناس في اسم مرتكب الكبيرة، في الدنيا، وفي حكمه في الآخرة، فانقسموا إلى طرفين ووسط:

أولًا: الأسماء:

الطرف الأول: المرجئة: يعدون مرتكب الكبيرة "مؤمنًا كامل الإيمان"، ويقولون إيمان أفجر الناس كإيمان أتقى الناس؛ كإيمان أبي بكر وعمر، وجبرائيل وميكائيل؛ لأن الإيمان عندهم التصديق.

الطرف الثاني: الوعيدية: يزيلون عن مرتكب الكبيرة اسم الإيمان، غير أن الخوارج تطرد القول، فتقول: "كافر"، وأما المعتزلة، فقالوا: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، فهو: "في منزلة بين منزلتين"؛ لا مؤمن ولا كافر.

الوسط: أهل السنة والجماعة: يعدون مرتكب الكبيرة "مؤمنًا ناقص الإيمان"، أو يقولون: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا يزيلون عنه وصف الإيمان، لأنهم يرون أن الإيمان مراتب ودرجات، فلا يعطونه الاسم المطلق، ولا يسلبونه مطلق الاسم.

ثانيًا: الأحكام:

الطرف الأول: المرجئة: غلاتهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهو في الجنة مهما عمل من الكبائر، أما مرجئة الفقهاء فيقولون بما تقول به أهل السنة والجماعة. قال الطحاوي-رحمه الله-: " ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، ونرجوا للمحسنين من المؤمنين، ولا نأمن عليهم، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنطهم"

الطرف الثاني: الوعيدية: من الخوارج والمعتزلة، قالوا: إنه مخلد في النار.

الوسط: أهل السنة والجماعة: قالوا: إن مرتكب الكبيرة تحت المشيئة والإرادة في الآخرة؛ إن شاء الله عفا عنه، وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه بذنبه، ومآله إلى الجنة؛ لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، ولأحاديث الشفاعة المتواترة الدالة على أن

الله تعالى يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة، مثقال ذرة، مثقال برة، مثقال شعيرة، مثقال خردلة، أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، من النار.